# التعايش الإنساني في ظل العقيدة الإسلامية والمعطيات المعاصرة

د. حسن بن محمد بن علي البارقي
أستاذ مساعد بجامعة الملك خالد – السعودية

## ملخص البحث

تتجلى عظمة الإسلام في أنه سبق سائر الثقافات والامبراطوريات المعاصرة والسابقة إلى تأصيل متميز وتطبيق لأسس التعايش الحضاري الراشد، واستوعب عبر تاريخه أمم الأرض على اختلاف أديانها، وتوجهاتها. وتهدف هذه الورقات المتواضعة إلى إيضاح مفهوم التعايش في ضوء أصول الإسلام الكبرى، والتركيز على المنطلقات والآليات المحققة للتعايش الإنساني مع إلماحة سريعة إلى مسلمات التعايش بين الشرق والغرب في عالمنا اليوم. فهو محاولة للمساهمة في الدلالة على المقاصد الكبرى والقيم العليا التي ينشدها العالم في قوانينه الإنسانية والتي كفلها الإسلام الرعاية من أول وهلة. ونحن موقنون بأن القانون المحكم هو الذي لا يأتيه الباطل أبداً... وهو الذي تنشده البشرية، وتسعى جاهدة للوصول إلى مراقي العدل والحق والسمو الإنساني في سيرورتها البشرية عبر القرون، فهل يتسنى لها ذلك؟! وكيف؟!

وهو تساؤل كبير، والإجابة عليه أكبر وأكبر، وما الدساتير والنظم والقوانين التي حفل بها تاريخ البشرية الطويل إلا جزء من الجواب العلمي والعملي على هذا التساؤل الملح... وإن في تعدد صور القوانين البشرية وتتابعها، ونسخ اللاحق منها للسابق أو استدراكه عليه لخير شاهد على مدى القصور اللازم للعقل البشري وحاجته إلى أنوار الوحي الإلهي المنزل السالم من التحريف والتبديل، والمعصوم من الزيغ والزلل!!

وقد تناولت في المبحث الأول

مفهوم التعايش وأهميته وأركان التعايش وآلياته واختتم هذا المبحث ببعض الضوابط الإجمالية التي تضبط مبادرة التعايش عند المسلم مع الآخرين.

وجاء المبحث الثاني بعنوان عوامل مساعدة على التعايش لتسليط الضوء على أبرز العوامل التي تؤدي إلى إنجاح التعايش وجعله واقعا ملموسا.

بينما كان المبحث الثالث بعنوان المسلمات المتفق عليها بين الشرق والغرب في التربية على التعايش الإنساني ليأتي بعده المبحث الرابع بعنوان التعليم منطق للتعايش ليركز على أساس التعليم بوجه أخص كمنطلق رئيس للتعاون بين الشرق والغرب من أجل إيجاد أرضية حقيقية وخصبة لإنبات العيش المشترك في صورة تمثل نموذجا عالي الإنساني والمسؤولية.

ثم خلاصة البحث والتوصيات التي وصلت إليها من خلاله ... ثم الخاتمة

إضاءات قرآنية

قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ (الآية 8 من سورة الممتحنة).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾ (الآية 94 من سورة النساء).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الآية 108 من سورة الأنعام).

## المقدمة

تتوجه أنظار العالم اليوم في شرق الأرض وغربها إلى مخرج من الأزمات المتلاحقة التي تعصف بالدول والمجتمعات وبعد عقود من الصدام، والصراع استمرت على امتداد القرن العشرين، ولا تزال صور من هذا الصراع مستمرة إلى أيامنا هذه في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين الميلادي..

ومع ذلك الألم، فإنه ما زال يراود البشرية أمل في الخروج من تلك الأزمات والحروب والمجاعات...

وكمحاولة لوضع المعالجات التي تخفف من حدة النزاعات والتوترات في العالم اليوم ظهرت الدعوات التي تنادي بالتعايش السلمي بين أمم الأرض ... وبغض النظر عن الدوافع الحقيقة وراء تلك الدعوات إلا أنها استرعت انتباه عقلاء وعلماء العالم، وأصبحت هاجسا عند الدول وكذلك الأفراد والشعوب.

وعند النظر والتأمل في تعاليم الدين الإسلامي، وتراتيبة القضائية والإدارية واستحضار مدارسه الفقهية والاجتماعية، واستلهام أدواره الحضارية والتنموية نجد أن المسلمين قد مارسوا التعايش مع أمم الأرض من أصحاب الديانات المختلفة وفصلوا الأحكام والمذاهب في التعامل معهم في الأكل والشراب والزواج منهم، ومخالطتهم في الدروب والسكن والأسواق والمناسبات العامة والخاصة، وإن المتأمل لما طفح به التاريخ الإسلامي وحقول المعرفة الأخرى كمدونات الفقه والأحكام، ليذهل من مدى حضور التعايش مع الآخر المختلف دينيا وفكريا ومذهبيا؛ بل نجد المحدثين قد تكلموا عما هو أبعد من ذلك وهو حكم رواية المبتدع ومتى تقبل أو ترد؟

مما يوضح لنا بجلاء سمو الممارسة العملية للمسلمين في عصورهم الوضاءة مع ظاهرة الاختلاف، وحسن تعاملهم وتعايشهم مع المساكنين لهم من المخالفين دينا وعقيدة ومذهبا، ويأتي في مقدمة ذلك النموذج القدوة خير البشر، الرسول الخاتم الذي ساكن اليهود في المدينة، ووادع المشركين، وراسل ملوك الأرض وقبل هداياهم، واستقبل وفد النصارى من أهل نجران في مسجده، وزار ابن جاره اليهودي لما كان مريضا، وأكل من الشاة المسمومة التي دعته إليها اليهودية فقبل دعوتها ... ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل الحب الذي اكتاله منه..

وقد جاء هذا البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة حاولت من خلالها أن أدخل إلى صلب الموضوع مباشرة، وأن أتناول الجوانب التي تؤدي لتحقيق التعايش السلمي في واقعنا المعاصر من خلال إبراز مفهوم التعايش وضوابطه والعوامل المساعدة لإنجاح.

والله الموفق

## المبحث الأول: التعايش (مفهومه، أركانه وآلياته، ضوابطه)

### مفهوم التعايش وأهميته

حيث توجد مجموعات للبشر فإنه لا بد وأن تبرز فكرة التعايش وتعلو الدعوة إلى وضع الأسس والضوابط للحد من تعديت البشر بعضهم على بعض.

والتعايش تفاعل مشترك من أكثر من جانب أركانه هم المتفقون والمختلفون من جهة، والمكان الذي يعيشون عليه من جهة أخرى، والأسس والمبادئ المنظمة لتعايشهم من جهة ثالثة.

فنجد أن التعايش مأخوذ من العيش وهو الحياة أو ما يكون سبباً لها، ولا شك أن الناس محتاجون لبعضهم في معاشهم ولا تقوم الحياة على الوجه الأمثل إلا إذا توفرت البيئة الصالحة لذلك. ولا يلزم من هذا التعايش أن يكونوا متفقين في كل شيء، فالاختلاف في بني البشر هو الأصل فكما أنهم مختلفون في طبائعهم وألوانهم وألسنتهم فكذلك يختلفون فيما يعتنقون ويلتزمون من قيم ومبادئ ومعتقدات، ويكون منهم المصيب للحق والقريب من الصواب والهدى والبعيد عنه كل البعد ويتفاوت الناس فيما بين ذلك كثيراً.

فالتعايش: هو أخذ بأسباب العيش، وتبادل للمنافع ينتج عنه تسامح مع المخالف في الحدود التي يقبلها العقل والفطرة وأحيانا العرف وتقرها الأنظمة والقوانين سواء المتلقاة من الوحي المعصوم الذي عليه المدار في بلاد المسلمين أو المستقاة من العرف والممارسة المجتمعية الناضجة والمستقيمة مع الصالح العام ليتحقق المقصود من ذلك بمعنى أن يعيش المجتمع خارج دائرة الصراع العنيف.

ويزيد المسلم هنا درجة على غيره وهو أن يفعل كل ذلك احتسابا للأجر، بقصد إتمام العمران البشري وإحسانه، وتكثير خيره، وتقليل شره؛ ويرجو ثوابه عند الله لأن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم(1).

وعند التأمل نجد أنه:

يصعب تحديد مفهوم التعايش ابتداءً لكونه تتجاذبه أطراف كثيرة، وقد لا تتفق فيما بينها على مفهوم واحد محدد للتعايش الاختلاف المنطلقات والخلفيات الثقافية والحضارية؛ ولكنه الحل الذي لا بديل عنه لاستقرار المجتمعات ذات التعدد الثقافي!!

إن التعايش بين أتباع الأديان والثقافات المختلفة يفقد جدواه وقيمته حين ينقلب دعاته إلى مصرين على استغلاله وتوجيهه الوجهة التي تخدم الأهداف الإنسانية المتفق عليها في التعايش، بمعنى أنه لا يمكن أن يكون هناك تعايش ما دام هناك تخطيط للإجهاض والمحاربة للطرف الآخر وإلغائه من الوجود.

(1) جزء من حديث شريف، انظر السلسلة الصحيحة للألباني 652/2.

ومع ذلك فإن المسلمين عبر تاريخهم الطويل كانت لهم دول قامت على التعايش بين أصحاب الأديان المختلفة لا يمنعهم مانع من أن يستجيبوا لدعوة التعايش مع غيرهم من أتباع الأديان الأخرى حتى ولو كان مفهوم التعايش عند أولئك الآخرين منقوصا أو مناقضا للمفهوم الإنساني المتحضر اليوم خصوصا في الغرب(1).

لقد تعايش الإسلام والمسلمون مع الرافضين له من قريش ابتداء في مجتمع مكة وحول الكعبة 360 صنما(2) وكل مظاهر الانحراف معلنة جنبا إلى جنب مع بقايا القيم والمكارم الأخلاقية التي كانت موجودة آنذاك ... والتي كان الرسول ﷺ من لحظته الأولى يتممها ويكملها ... "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"(3).

فإن قال قائل إن ذلك التعايش كان مضبوطا بضابط الاستضعاف وقلة المسلمين، وضعف إمكاناتهم، فلنترك العهد المكي جملة وننتقل إلى العهد المدني الذي كان فيه للمسلمين قوة ومنعة وتأسست لهم هنالك فيما بعد نواة الدولة، ومع ذلك فقد كان التعايش ظاهرا في العهد المدني في صور جلية ومتعددة حفلت بها كتب السيرة والتاريخ(4).

وحين تتجاوز العهد المدني إلى عهود الخلافات الراشدة نجد أن المدينة امتلأت بالسبي والموالي من غير المسلمين جراء توسع الفتح الإسلامي ومع ذلك فقد عملوا في سائر المهن والصنائع بين ظهراني أهل المدينة، موفورة لهم مكانياتهم وحقوقهم، ولم يضج الصحابة وكبار التابعين أو يضجروا من مقام أولئك السبي بينهم مع الاختلاف البين والواضح في العقائد والسلوك؟

أما عهود الدول الإسلامية بعد ذلك بما فيها الأموية والعباسية فقد وصل نفوذ غير المسلمين فيها إلى سدة بلاط بعض السلاطين مما يدل على إفساح مساحة الحرية في تلك الدول، والاكتفاء من الرعايا بأن يحفظوا نظام الدولة، ولا يسيئوا المقام والجوار فيها مع حفظ مكاسبهم ومعاشاتهم وأمنهم مما زاد بعد ذلك من أعداد الداخلين إليها، وكذلك الداخلين في دين الإسلام!!

## التعايش في اللغة:

أصل التعايش من العيش قال ابن فارس: (العين والياء والشين أصل صحيح يدل على حياة وبقاء، قال الخليل: العيش: الحياة. والمعيشة التي يعيش بها الإنسان من مطعم ومشرب وما تكون به الحياة، والمعيشة: اسم لما يعاش به. وهو في عيشة ومعيشة صالحة)(5). وجاء في المعجم الوسيط: (عاش عيشاً وعيشة ومعاشاً: صار ذا حياة فهو عائش. وعَايَشَهُ: عاش معه، وتعايشوا: عاشوا على الألفة والمودة) (6) ومنه التعايش السلمي، وهذا فيه نظر، إذ إنه الصورة الأكمل من أنواع التعايش ولكن دونه مراتب يصدق عليها مسمى التعايش، لا تستلزم المودة!! فإن دلالة مفردة العيش في أصل اللغة

(1) انظر التويجري، د. عبد العزيز عثمان، الحوار من أجل التعايش، ص 89- 90، دار الشروق، ط1، 1419 هـ/ 1998م.

(2) راجع الرحيق المختوم في سيرة النبي المعصوم لصفي الرحمن المباركفوري.

(3) حديث شريف، رواه البخاري في الأدب المفرد برقم 273 وغيره، انظر السلسلة الصحيحة للألباني 75/1.

(4) انظر بحث التعايش السلمي بين الشعوب والأديان، د. رشيد كهوس، منشور في مجلة أصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية، العدد الأول، ص 122 وما بعدها.

(5) مقاييس اللغة لابن فارس، 194/4.

(6) المعجم الوسيط 639/2.

لا تدل على اشتراط الألفة والمودة أو تخصيصها به، وإنما هي مفردة محايدة تصدق على مطلق العيش، مهما اتصف به ذلك العيش من مودة أو كره، أو حسن أو سوء، فالعيش الأصل فيه إذ أطلق على الذوات أن يراد به مطلق التقارب البدني، قال في لسان العرب: (... وعايشه عاش معه؛ كقوله عاشره قال قعنب بن أم صاحب:

وقد علمت على أني أعايشهم لا نبرح الدهر إلى بيننا إحن

والعيشة ضرب من العيش يقال: عاش عيشة صدق، وعيشة سوء)[1].

وقد يقال إن المودة درجات والتآلف يتفاوت كذلك، فكما أن أهل الدين الواحد تتفاوت موداتهم لبعضهم ويتآلفون ويتنافرون وهم أبناء الدين الواحد .. فكذلك بين أتباع الملل والديانات المختلفة يمكن قبول وقوع المودة والتآلف، اللذان يحققان التعايش في ضوء قول اله تعالى: (لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ ) (الآية 8 من سورة المتحنة).

خاصة في حق المؤلفة قلوبهم ومن يرجى لهم العاقبة الحسنة، وتوسم فيهم قبول الحق والانقياد له. وتكون المحافاة وعدم الموالاة لمن كان متعصبا معلنا المحادة للإسلام والمسلمين جزاء صنيعه وردا لعدوانه وتحجيماً لبغيه واستطالته!!

## مفهوم التعايش المعاصر:

ابتدأ رواج مصطلح التعايش عالميا مع ظهور الصراع بين الكتلتين الشرقية والغربية اللتين كانتا تقسمان العالم إلى معسكرين متناحرين قبل سقوط سور برلين وانهيار الاتحاد السوفيتي. ففي عام 1956م، نادى الزعيم السوفيتي نيكيتا خرتشوف بمبدأ التعايش السلمي وذلك يعني (التنافس بدون حرب) بين الشرق والغرب[2] لم يكن هذا الخطاب يهم سوى هاتين الكتلتين، بمعنى أن النزاع والتصادم كان قد بلغ أشده بينهما ولا بد من وجود مخرج لذينك المعسكرين!. وعند البحث في مدلول هذا المصطلح نجد أنه يقودنا إلى جملة من المعاني محملة بمفاهيم متضاربة، ولكن يمكن تصنيفها على النحو التالي:

المستوى الأول: سياسي، أيدلوجي، يحمل معنى الحد من الصراع، أو ترويض الخلاف العقائدي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، في المرحلة السابقة، أو العمل على احتوائه، أو التحكم في إدارة هذا الصراع بما يفتح قنوات للاتصال، وللتعامل الذي تقتضيه ضرورات الحياة المدنية والعسكرية، وقد عرف التعايش أول ما عرف على هذا المستوى الأول.

المستوى الثاني: اقتصادي؛ يرمز إلى (علاقات التعاون بين الحكومات والشعوب، فيما له صلة بالمسائل القانونية والتجارية).

(1) لسان العرب لابن منظور 321/6.

(2) انظر: الموسوعة العربية العالمية، مادة الحرب البادرة، وانظر موسوعة ويكبيديا عند ترجمة نيكتاخروتشوف على الشبكة العالمية (الانترنت).

المستوى الثالث: ديني، ثقافي، حضاري؛ وهو الأحدث. والمراد به: أن تلتقي إرادة أهل الأديان السماوية، والحضارات المختلفة في العمل من أجل أن يسود الأمن والسلام العالم، وحتى تعيش الإنسانية في جو من الإخاء والتعاون على ما فيه الخير الذي يعم الجميع بلا استثناء)[1]، وهو أقرب الحدود في بيان المراد.

وعند اليونسكو التعايش هو: (احترام الآخرين وحرياتهم والاعتراف بالاختلافات بين الأفراد والقبول بها.. وهو تقدير التنوع الثقافي وهو الانفتاح على الأفكار والفلسفيات الأخرى بدافع الإطلاع وعدم رفض ما هو غير معروف)[2] فكأن اليونسكو اقتصرت على ما هي معنية به من أنواع التعايش وهو المستوى الثالث، وعرفه بعض الباحثين بأنه السلوك الذي (يهدف إلى تحسين مستوى العلاقة بين شعوب أو طوائف، وربما تكون أقليات دينية، ويعنى بالقضايا المجتمعية كالإنماء، والاقتصاد، والسلام، وأوضاع المهجرين، واللاجئين ونحو ذلك)[3].

وبطبيعة الحال فإن الحديث عن التعايش إنما يعالج في أصله مشكلة أوروبية أوروبية، تمثلت في التقاطعات الموجودة بين مصالح المعسكرين الشرقي والغربي، ولاحقاً أدخل العالم الإسلامي إلى معترك النزاع، بسبب سقوط الكتلة الأوروبية الشرقية وظهور مرحلة أحادية القطب! وبعد ظواهر العنف التي اجتاحت العالم عموما وبرزت في الآونة الأخيرة بشكل أكثر حدة في بعض مناطق العالم الإسلامي فإنه أصبح من الضروري وجود معالجات مختلفة لمواجهة هذه الظواهر المؤسفة التي نتيجتها الخراب والدمار وهلاك الحرث والنسل وفيما يأتي سيكون التركيز على التعايش بين الأطياف المختلفة داخل البيئة الإسلامية، وخارجها، وكيف يمكن لنا استثمار المبادئ والقيم في التربية على أسس التعايش والسلم؟!

## أركان التعايش ومنطلقاته العامة:

لكل دعوة وفكرة أركانها التي تنبني عليها ومنها تنطلق وحين ننظر إلى دعوة التعايش في عالمنا اليوم فإننا نجد في ديننا ومسلماتنا الثقافية والعرفية ما يؤيد ذلك ومنها:

1- مشروعية عصمة الدماء والأموال وصيانة الأعراض من حيث الأصل:

فقد قررت شريعة الإسلام هذا المبدأ وترسخ في عقائد المسلمين أنه ليس هناك ذنب أعظم من إراقة دم بغير حق فيما دون الشرك الأكبر من الذنوب. حتى إن الرسول ﷺ عاتب أسامة بن زيد (وهو حب رسول وابن حبه) على قتله المشرك الذي أسلم في ساحة المعركة خوفا من القتل وأنبه تأنيباً شديداً حتى تمنى أسامة رضي الله عنه أنه لم يسلم إلا بعد ذلك اليوم من شدة التحريج الذي أصابه من رسول الله.

ولا يقوم التعايش الحق إلا بضمان الأمان للناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. فإذا تحقق هذا الركن الركين والأساس المكين سهل بعده كل ما يدعى إليه من مقومات التعايش وأساساته، ولاشك أن الإسلام بشريعته وسماحته قد كفل ذلك.

(1) الحوار من أجل التعايش للدكتور عبد العزيز التويجري، ص 76.

(2) انظر: الحوار بين الأديان للدكتور عبد الرحيم السلمي، ص 27.

(3) دعوة التقريب بين الأديان للدكتور أحمد القاضي، 348/1.

2- توفير فرص العيش الكريم، القائم على العدل، والمساواة في تقاضي الأجور ودفع المستحقات حتى تصل الحقوق إلى أربابها من غير بخس ولا مطل، ولا ضرار ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ (الإسراء من الآية 70).

وهذا إنما يتحقق بالتنمية الحقيقية والمستدامة واستقطاب العقول المنتجة والطاقات الشابة، وإعطائها المقابل الجزل المجزي الذي يدفعهم للعطاء أكثر فأكثر ويعزز فيهم الولاء والانتماء للبلد الذي أعطاهم فرصة العيش الكريم. ونحن نرى اليوم شواهد كثيرة قامت على هذا المبدأ حتى طاب للمهاجرين من أقطار الأرض المقام في تلك الأوطان رغم بعدها واختلاف أجوائها ونظم حياتها الطبيعية والقانونية غير أنه قد تحقق لهم من فرص العيش الكريم ما لم يجدوه في مكان آخر أقرب إليهم حسا ومعنى!!.

3- كما أن من أركان التعايش الهامة استصلاح الأفراد والمجتمعات بالتربية والتعليم والتدريب وتمييز الصالحين منهم وتحقيق المواطنة الصالحة من قبل المقيمين جميعا على أرض الوطن سواءاً كانوا من أبنائه الأصليين أو من القادمين إليه من أماكن أخرى ومعايير المواطنة الصالحة وضوابطها تختلف من بلد إلى بلد غير أنها في الأخير ممكنة التحقيق، وتخضع للقوانين ونجد في الإسلام أروع النماذج في إعانة المجتمع على تحقيق المواطنة الصالحة من قبل أفراده على اختلاف أحوالهم وانتماءاتهم من خلال تركيزه على التضامن والتكافل ورعاية ذوي الحاجات. ونشاهد في عالمنا المعاصر دولاً تلزم القادمين إليها بتعلم لغة البلد من أجل إدماجهم في الحياة العامة وتمكين البلد من الاستفادة من طاقات أولئك القادمين.

4- عدالة الأنظمة والقوانين ومساواة الرعايا مع غيرهم من المواطنين فيما يطلب منهم من الضرائب أو يقع عليهم من العقوبات، بحيث تكون القوانين والأنظمة كافلة للتعايش ومحققة له.

## آليات التعايش ومبرراته:

نظرا لكون اختلاف الأديان هو الأساس في الفرقة والاختلاف والوحشة بين بني البشر فيمكن أخذ قضية التعايش الديني منطلقا لهذا العنوان.

وعند تأمل هذه المسألة يمكن الخروج منها بجملة من الآليات المساعدة وهذه الآليات في مجملها من المسلمات والبديهيات:

الأساس الأول: ضمان الإرادة الحرة المشتركة بين الأطراف المختلفة، فلا يكون التعايش مفروضاً تحت أي ضغط، أو مشروطاً بأية شروط ظالمة مجحفة. وكلما زاد إحساس الإنسان بحريته وإرادته كلما كان قيامه بمسؤولياته أكبر وتحققت عنده أولويات المواطنة الصالحة لإدراكه التام أن الآخرين يحق لهم أن ينالوا مثل ما لديه ... والعكس بالعكس..

وهذا هو الذي يكفل حرية الاختيار، وجرأة اتخاذ القرار في تغيير القناعات إلى ما هو أفضل، والانتماء الأكمل، وفي حالة الظروف الطبيعة تكون كفة الإسلام هي الراجحة لملاءمتها للفطرة وانسجام المبادئ والقيم الإسلامية مع المقررات والتصورات الذهنية للإنسان.

الأساس الثاني: رسوخ ثقافة التفاهم حول الأهداف والغايات، والتي تدور حول خدمة الأهداف البشرية، وتحقيق المصالح العليا، وفي مقدمتها استتباب الأمن وحفظ مقوماته وانتشار السلم في الأرض ورعاية مشروعة، وردع العدوان والظلم، بصورة المختلفة القولية والعملية، واستنكار الممارسات التي تنتهك حقوق الشعوب.

الأساس الثالث: مأسسة التعاون على العمل المشترك، بمعنى تحويله من جهود أفراد إلى عمل مؤسسات وقد قطعت الدول أشواطا كبيرة في خدمة مجالات التعايش والعمل المشترك ولكننا في عالمنا الإسلامي بحاجة إلى رؤية وإرادة على أعلى المستويات ونحن عهد الله نمتلك الرؤية الدينية الواضحة، والحصيلة الكبيرة من التجارب التاريخية وهذا من العوامل المشجعة على إشاعة مفاهيم التعايش.

الأساس الرابع: صيانة التعايش بسياج من الاحترام، والثقة المتبادلة[1].

إن الهدف الأسمى للتعايش هو الوصول إلى كلمة سواء... لذلك نجد أن من مقاصد الإسلام دعوة المخالف وتمكينه من العيش بأمان بين المسلمين مع حفظ سائر حقوق المستأمنين والذميين وغيرهم ممن يقيم على أرض المسلمين، وإن مما يسوغ فتح باب التعايش مع المخالف في الدين، برغم خلافه العقدي، أمور:

أولا: العذر بالجهل أو التأول، فكثير منهم معذور فيما هو عليه، فقد يكون جاهلاً، أو مكرهاً، أو اشتبه عليه الأمر، والله تعالى قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء من الآية 15). فاستصحاب النظر في أحوال المخالفين، ومعرفة الباعث لهم على الاختلاف كفيل بأن يساهم في تقليص وتضييق هوة الخلاف.

ثانيا: الدعوة، فالمسلم مأمور بدعوة المخالف أيام كان، وذلك لا يكون إلا بإحسان التعايش معه، فإنه أي المخالف لا يقبل شيئا مع الإساءة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ (النحل، من الآية 126). ومن الحكمة إحسان التعايش في أمور الحياة مع المخالف إلا لمن ثبت كيده ومكره فيعامل بما يستحق.

ثالثا: الحاجة؛ فالمسلمون يحتاجون إلى غيرهم في معايشهم، وقد أباح الله تعالى طعام الكتابي والزواج منهم، واستعمال آنية المشرك، واستعماله في الصناعة والحراسة وغير ذلك. وهذه أمور تقصاها الفقه الإسلامي وقننها بما يوافق الحاجات والمتغيرات مراعيا الظروف والأحوال والإمكانات.

رابعا: المصلحة؛ فإن إساءة التعايش قد يعود بالضرر على المسلمين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام، من الآية 108). فمراعاة المصالح العليا وتقديمها مقصد شرعي ومطلب إنساني ودرء المفاسد وتقليلها مما أجمع العقلاء عليه استحسانه وقرره الدين الإسلامي، بل وقدمه على جلب المصالح لأهميته في تحقيق العيش المستقر للرعية.

(1) الحوار من أجل التعايش، للدكتور عبد العزيز التويجري، ص 76- 77.

خامسا: الضرورة؛ فمن المسلمين من لم يجد العيش الكريم إلا في بلاد المخالفين، وهجرة الصحابة إلى الحبشة شاهد على الإذن. ونحن ندرك أن الضرورات تقدر بقدرها وأن لكل مقام مقال، ولكن نستصحب هذه الاعتبارات لأجل التعايش الصحيح، فكما أن الضرورة قد تلجئ المسلم إلى العيش في بلاد غير المسلمين وكذلك غير المسلمين قد يحصلل لهم نفس الشيء!!.

سادسا: الإحسان؛ فقد أذن الله تعالى بالإحسان إليهم، وهو من الأسس التي يقوم عليها التعايش، فقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة آية 8)[1].

والإحسان مبدأ إسلامي أصيل، وركيزة عظمى من ركائز الإسلام وضحها النبي ﷺ بقوله: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء..." الحديث.

وبالنظر إلى دوائر المجتمع المختلفة والمتنوعة ما بين العلم والجهل، والإيمان والكفر، والغنى والفقر نجد خيط الإحسان يتخللها جميعا فينظمها في عقد الإحسان؛ ليحسن العالم إلى الجاهل، والمؤمن إلى الكافر، والغني إلى الفقير والقادر إلى العاجز، والآمن إلى الخائف والكاسي إلى العاري "وما آمن من بات شبعان وجاره جائع".

وكما أن الإحسان يكون بالفعل والبذل والعطاء والمؤازرة فإنه يكون بصنوف القول والخطاب "وقولوا للناس حسنا".

فإذا برز الإحسان على سطح العلاقات الاجتماعية، وطفحت به تفاصيل الحياة اليومية فإن التعايش يكون متحققا بين أفراد المجتمع حتى لتكاد أن تتلاشى كثير من الفروقات بينهم، وتخالهم أسلموا أو كادوا أن يسلموا...

ويمكن القول: إن من آليات التعايش المساعدة على تحقيقه بالصورة المثلى.

1- الحوار: بكل دلالاته اللغوية والشرعية وآدابه ومقوماته السلوكية ومتطلباته العصرية وفي كل المجالات والميادين.

فالحوار مبدأ أصيل في ديننا ورد في القرآن اسمه الصريح في ثلاثة مواضع[2] تدل على أن معناه في السياق القرآني موافق لأصل معناه اللغوي[3] من حيث تراجع الكلام والمخاطبة والمجاوبة به.

ويفترق الحوار عن الجدل في أن الحوار لا خصومة فيه ولا تعصب ويغلب عليه الهدوء ومحاولة كل من المتحاورين الوصول إلى الصواب بدون لجج ولا مماراة وهو ضرب من الأدب الرفيع، وأحد أساليبه[4].

وهو أحد أنجع أساليب الدول لتحقيق مبتغاها حينما تتعارض مصالحها مع مصالح دولة أو دول أخرى، فيكون الحوار هو المفزع؛ لنزع فتيل الاختلاف المفضي إلى التصادم!! ويعتبر الحوار وضعا حضاريا متقدما، يسجل حضوره في كل

---

(1) انظر: مقال بعنوان "حدود التعايش مع الأديان والمذاهب والفرق والمذاهب" للدكتور لطف الله خوجه، منشور على موقع جامعة أم القرى.

(2) في سورة الكهف آية 34، 37 وسورة المجادلة آية رقم 1.

(3) انظر القاموس المحيط (16/2)، ولسان العرب (217/4-219).

(4) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، د. يحي محمد زمزمي، ص 22.

طبقات المجتمع وبين كل أفراده، مما يجعله أسلوب حياة، تفتح به الأبواب الموصدة في طريق المتحاورين، وإنما يغيب منطق الحوار إذا ساد الجهل، وقاد الطمع، وغاب العقل أو غيب عن المشهد!!

وعلية فلا بد أن تأخذ المجتمعات بالحوار في حياتها اليومية وأن توضع له المناهج التربوية في التعليم من مراحله الأولى بل وما قبل الأولى، فإن الأسرة هي المحضن الأول لبذرة الحوار، والأسرة الناجحة، القائمة على الحوار يسهل كثيرا الحوار مع أبنائها بخلاف ضدهم من أجل الوصول بالمجتمعات إلى التعايش الحقيقي الآمن المنتج البعيد عن كل أنواع التسلط والعنف.

2- تضمين مناهج التعليم شروحات مفصلة للضرورات والكليات الخمس التي جاء بها الإسلام بحفظها وهي (الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل). ومقومات المواطنة الصالحة وأن تكون تلك الشروحات التفصلية قائمة على الفقه الإسلامي الأصيل والمقارنة بالقوانين المعاصرة، مدعمة بطرائق تطبيقية ونماذج حياتية من الواقع المعاصر وبإشراف خبراء في الشريعة الإسلامية ومتخصصين في التربية والعلوم العصرية.

3- محاربة التعصب والعنصريات والعنف بكل الأشكال والمظاهر وتوسيع دوائر الحوار والمشاركة والتعاون لبناء الأوطان والمساهمة الحضارية وحفظ حقوق الأجيال القادمة التي ينبغي أن تؤسس حياتهم على السلام والاستقرار ورغد العيش وذلك محتاج إلى تربية وتعليم وقانون وإصلاح وبناء مستمر لا يتوقف.

وما لم نستأصل نبتة العصبيات والطائفيات من بلاد المسلمين تلك النبتة الغربية المشينة فلن يكون هناك تعايش ولا أمن ولا استقرار. وما لم تكن هناك قوانين رادعة وأخرى تربي وتنظم عملية تعايش الناس وتساعد على اندماجهم وترابطهم وإلا فما نزال بعيدين كل البعد عن السلم والسلام.

إن تفجر الأوضاع في عالم اليوم صيحة نذير تبين لنا فشل العالم الذريع في نشر معاني الإسلام والسلم والسلام في مجتمعاتنا وبلادنا المسلمة فضلا عن أن نوصل إلى العالم الآخر تلك المعاني السامية التي بها سعادة البشر وأمنهم.

والعالم اليوم يعيش تيهاً حضاريا يشبه التيه الذي ضاع فيه بنو إسرائيل، فهو ينشد الأمن والسلام والطمأنينة ورغد العيش من جانب، ولكنه من جانب آخر يؤجج الصراعات ويفتعل الحروب، ويشيع الفساد، وينشر أسلحة الدمار والخراب!!

إنه يقيم المحافل والمؤتمرات وينشئ الاتفاقيات والمعاهدات ويعلن المبادئ والمواقف التي تصون الحريات والعدالة وتؤكد على التعايش والسلم، ويوقعها ويعلن التزامها والتأكيد عليها واحترامها في أماكن من العالم...

وفي ذات الوقت ينسق تلك المبادئ ولا يقيم لتلك المعاهدات والاتفاقات وزنا في أماكن أخرى من العالم!!

بل يزين العالم اليوم ظلمه وبغيه وهمجيته بدعاوى عريضة، لا حقيقة لها فأي إفلاس للمدنية اليوم أكبر من هذا؟!! وأي شقاء تعيشه الإنساني؟!! ولكنه مقتضى سنه المدافعة بين الشر والخير، ونذير شؤم تقاطع المصالح، وضيق الأفق!! ودليل علو كعب المبطلين، وميل الكفة لصالح المفسدين، وما لم يغلب صوت العقل، ويعلو جانب الإنسانية في الإنسان ذاته وإلا فإن آلة الفتك والدمار والفساد لن تتوقف من ذاتها ما لم توقفها إرادة الإنسان القائم خلفها والمدبر لها!!

وما لم تستيقظ فيه تلك الإرادة الخيرة، وتقوى وتغلب غيرها لترجح كفة الإصلاح فإن الحوار يكون هذياناً لا معنى له.. ويظل التعايش والسلم وهما لا حقيقة له!!

## ضوابط التعايش:

لما كان مصطلح التعايش مصطلحا عائما وملتمبسا في بعض الأحيان، فقد يكون من المناسب النظر إليه بحذر، وبيان الحق والباطل الذي فيه، وقد ذكر بعض الباحثين ثلاثة ضوابط إجمالية لمفهوم التعايش نشير إليها:

أولا: الفهم العميق للإسلام: فلا تلازم بين الإحسان والعيش الكريم والتسامح في المعاملة وبين الموالاة للكفار. أو ترك البراءة منهم، فالولاء والبراءة أصل شرعي دلت عليه نصوص شرعية كثيرة[1]، ونضيف هنا أن صورته الأقرب تظهر في التعامل مع السلم الفاجر أو المبتدع فكما أننا لا نحب فجور المسلم وضلالته فكذلك بالنسبة للكافر لا نحبه لكفره وبعده عن الدين. ولكن ذلك لا يمنعنا من التعامل معهما وإنصافهما والتعايش في مجتمع واحد ما دام كل من أفراده يلتزم واجباته ويؤدي ما عليه ولا يتطاول على الحرمات.

ثانيا: إقامة العدل والإنصاف مع كل الناس، فالعدل أساس عظيم في نماء المجتمعات واستقرارها، وعليه قامت السموات والأرض وهو في تجارب الأمم: أساس الملك.

ثالثا: التزام الحكمة في المعاملة وهي وضع الأمر في موضعه ومقامه الصحيح اللائق به. الموافق للمنهج الرباني ولطبيعة النفس الإنسانية[2].

سياقات مصطلح التعايش العالمي:

تظل مشكلة التنوع العرقي والاختلاف الديني والفكري والثقافي إحدى أهم المعضلات التي تواجه دول العالم اليوم، وقد تغير وجه التاريخ بعد الحربين العالميتين بما لا مجال معه للشك.

وبعد أن برزت أقطاب جديدة للعالم، وسادت فلسفات ومناهج تلك الدول العظمى محاولة تقاسم الولاءات في عالم مكلوم، مهيض الأجنحة، منهك القوى، لم يلتقط أنفاسه بعد مما حل به من الدمار والتشرد .. إلا أنه وجد الفرصة مواتية للاندفاع إلى هذه الدولة أو تلك من اجل الحصول على مستوى أفضل من العيش... وفي هدأة من الزمن، وبين عشية وضحاها، وجدت الدول الكبرى نفسها راعية لمجاميع بشرية تضج من داخلها بالتصدع والإثنيات والاختلافات العميقة، التي بدأت نذرها تطل برأسها في صور من العنف البغيض...

من هنا بدأ الشعور المتزايد بالقلق لدى الدول الأوروبية حينما كانت مقسومة إلى شرقية وغربية... لمعالجة مآسي مجتمعاتها والتي لم يكن حينها أي ظهور للإسلام أو ذكر له!!

ومثل ذلك أو قريبا منه كان يدور في المجتمعات الأمريكية في صور يعرفها العالم من المآسي التي لحقت السود من أجل انتزاع حقوقهم في الدستور الأمريكي وفي الممارسات اليومية التي يلقونها من مواطنيهم البيض!

لذلك فإن التعايش في كثير من مضامينه ودعاواه هو إعادة انتاج لما تداولته آلة الغرب الإسلامية، وهو تشكيل جديد لثقافة تشكلت في بيئات مختلفة، بأسباب ودوافع مختلفة!!

وبعد تصدير الحروب هنا وهناك، وماتلاها من نشوء أنظمة جديدة بهوامش مختلفة من الفكر والفكر المضاد ... تعالت الدعوات التي تنادي بالتعايش السلمي.

---

(1) انظر الولاء والياء، د. محمد سعيد القحطاني –كاملاً، فقد استولب النصوص في ذلك.

(2) انظر: الحوار بين الأديان للدكتور عبد الرحيم السلمي، ص 24.

على أن مصطلح التعايش قد يدل على سياق فكري مختلف عن ما سبق بيانه في المفهوم، ويكاد يكون هو المسيطر في الساحة الفكرية اليوم ومنه تسربت جملة وافرة من الأفكار. وهذا السياق الفكري يتضمن جملة من المفاهيم والقيم – والمهم هنا هو تناول جملة هذه المفاهيم والقيم وما فيها من نقاط التقاء بل لها مجالات واسعة في فقهنا وقانوننا الإسلامي ويمكن تلخيصها في النقاط التالية التي توضح جملة ما ينادي به دعاة التعايش اليوم:

- القول بحرية التدين. ونجد أن الإسلام قد سبق إلى ذلك في إعلانه القرآني الكريم ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾. مع مراعاة الفرق بين خروج صاحب الدين الأصلي منه، كارتداد المسلم عن دينه! وبين بقاء صاحب الدين الآخر على دينه دون الدخول في الإسلام ومن هنا يمكن أن نلحظ أن تشريع حد الردة إنما هو لحماية الدين نفسه من انتحال المبطلين، حتى لا يكون لعبة بأيديهم، وأما غير المسلمين فقد دونت أحكامهم التفصيلية وما لهم وما عليهم في مدونات الفقه والتاريخ الإسلامي وهي معروفة للخاص والعام. ونؤكد هنا أن المسلمين بحاجة إلى فهم إسلامهم وإبرازه بشكل أوضح للعالم عن طريق نظمهم وقوانينهم واحترامهم له حتى يدرك العالم أسرار هذا الإسلام العظيم وأن العالم هو الذي يحتاج الإسلام وليس العكس.

- منع كل ألوان الاعتداء على الآخر. ولاشك أن الإسلام قد سبق إلى ذلك وهو مبسوط في مدوناته الكبرى بل إن تاريخ المسلمين المجيد الطويل خير شاهد على قيام المسلمين بتوفير أعلى درجات الأمن والحماية لرعاياهم من غير المسلمين.

- منع الكراهية الدينية والدعوة للإخاء الإنساني. وهنا نجد النص القرآني الصريح ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾، والتأديبي للمسلمين بألا يتناولوا آلهة المشركين بالسب لئلا يقود ذلك إلى رد فعل من أولئك المشركين.

- المطالبة بالحرية الدينية للأقليات غير المسلمة في البلاد الإسلامية، والتعامل معهم على أساس الوحدة الوطنية وليس على أساس المعتقد الديني، واقتراح الغرب الحل العلماني كأفضل حل لمشكلة الأقليات. الإقرار بالأديان السماوية جميعا وتفسير هيمنة الإسلام عليها بأنه (مراقب) عليها فهو يرصد ما تتعرض له الديانات من انحراف عن الحق[1]. وهذا المحور يمكن الخوض فيه بحسب الحال والمقام والحاجة وهو ميدان خصب لاجتهاد العلماء المحققين، وبعض الأوطان لا يمكن التعميم عليها إذ أنها خالية من المشكلة أساسا أو لا تشكل ظاهرة فيها.

- البعد عن العنف والإرهاب والتطرف الديني والتكفير، والتدخل في خصوصيات الآخر الدينية، وأن كل هذا مناف للاحترام الديني الذي يجب أن يكون بديلا عن كل مظار العدوان السابقة... ولا شك أن الإسلام قد جاء رحمة للعالمين. ومن لوازم هذه الرحمة الرفق بالخلق والصبر عليهم والتلطف في إيصال الحق إليهم والاجتهاد في إيصالهم إلى ما يحقق النفع والمصلحة لهم في العاجل والآجل ولا شك أن المسلمين لو لم يتعرضوا لألوان الظلم والاستعمار

---

(1) نعم يوجد هناك بلدان بها أقليات دينية، وهي تدرك ذلك جيدا وتقدم المعالجات له بما يناسب نظمها، وينسجم مع المواطنة فيها، وهذا هو المعلن على أقل الأحوال، وهو توجه حميد من حيث الأصل في التعامل مع الظاهرة.

البغيض لما صدرت منهم مثل تلك التجاوزات وردود الأفعال، ونتمنى أن يتعافى العالم والمسلمون من كل مظاهر العدوان والظلم.

أما من تأول بعض النصوص للوصول إلى قوله المتشدد فهو بحسب طريقته في التأول إن كانت شبهة أو إشكالاً لها مسوغ في اللغة فإنها تزال الشبهة، وكل الأشكال، وما نصب العلماء أنفسهم إلا لمثل ذلك! فإن أجاب وإلا فهو مثل عامة المبتدعة، الذين تأولوا وصاروا إلى مقالات مناقضة لصريح الكتاب والسنة وحرجوا بها على المسلمين وضيقوا ما كان واسعا بغير حق فهذا أمره إلى السلطان!

ومعاناة المسلمين اليوم كبيرة جداً ممن يتكلمون في شؤون الأمة بوجهة نظر فردي، وانفعالات ظرفية بعيدة عن الاتزان والاعتدال والنظر في المآلات، ولا بد هنا من التأكيد على الاجتهاد الجماعي والمجامع الفقهية التي يمثلها علماء العالم الإسلامي في الفتيا والاجتهاد وأن تنعقد دوراتها في كل بلاد المسلمين على هيئة مؤتمرات وندوات دورية متقاربة الزمان مدروسة الخطط لإيجاد الحلول للمآزق التي تلم بالمجتمعات المسلمة وكيف يمكن التعامل معها. حتى تسعف جمهور المسلمين بالحلول في وقتها، لا أن تأتي متأطرة عن ظرفها وحينا:

وما لم يكن هناك قوانين ملزمة تستند إلى ذلك الاجتهاد الجماعي لعلماء المسلمين فإن العالم الإسلامي يظل نهبة لآراء الأفراد واجتهاداتهم الوقتية التي هي على كل الأحوال أقل نضجاً وضيق أفقا من الاجتهاد الجماعي القائم على المجامع الفقهية الكبرى التي تضم علماء المسلمين الكبار. ونستقرئ أحوال المجتمعات وضرورات العصر وتتلاقح فيها الفهوم والتجارب، وتعضد المدارس الفقهية بعضها بما لدى البعض الآخر.

## المبحث الثاني: عوامل مساعدة في التربية على التعايش

عند التأمل في العوامل المساعدة لإنجاح التربية على التعايش الإنساني والفضائل والمكارم العالية المتحققة من خلال ذلك نجد المجال واسعا، حيث سبق الإسلام بشموله وعدله ورحمته وإحسانه إلى تقرير كل ما من شأنه إنجاح مساعي التعايش والتقارب بين بني البشر ومن ذلك:

1- إجماع البشر من حيث الجملة على ضرورة الدين والمعتقد في القضايا الكبرى فنجد أن الرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر، والعملية كالوصايا العشر وغيرها من الوصايا. ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... ﴾ الآيات 151- 153 من سورة الأنعام. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾ الإسراء الآيات 23- 28. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (سورة الأعراف آية 33). ونجد هذا مركوزا في الفطر السليمة المستقيمة من بني البشر وهي خير شاهد على أن الأصل هو اجتماعهم على هذا المعتقد. وهذا ظاهر في الأديان الإبراهيمية الثلاثة.

2- أن دين الأنبياء واحد وشرائعهم شتى. فعند النظر إلى أن الأنبياء جميعا تدور دعوتهم لأممهم على محور أساس وهو الالتفات إلى واهب الحياة ومسبب الأسباب وأنه المستحق للعبادة دون سواه لأنه الحق المطلق بغض النظر عن الاختلافات في التشريعات من دين إلى دين.

فهذا المحور كفيل بأن تجتمع حوله دعوة المعتدلين في عالم اليوم وهنا نستشهد بهذا الحديث الصحيح: (إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، والأنبياء إخوة لعلات وإن أولى الناس بابن مريم لأنا؛ إنه ليس بيني وبينه نبي)[1].

3- أن المعنى العام للإسلام هو الاستسلام لله، والانقياد لوحي الله بعيدا عن الأهواء والتأويلات البعيدة وتربية المسلمين على هذا المعنى الذي هو أساس دين المسلم يجعل منهم أفرادا صالحين، ومواطنين أسوياء، لأنهم لا ينطلقون من عرقيات ولا عصبيات ولا مصالح آنية ضيقة، وإنما ينطلقون من مبادئ تعصم مجتمعاتهم من القواصم لاستسلامهم التام لأمر الله. فإن الإسلام لله لا يتم إلا بالإقرار بما له من حق وما على عباده من الواجبات. وهي في الإسلام بينة واضحة.

وهو كما بينه بعض علماء المسلمين بقوله (وأعني بخضوعهم له خضوع تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية أو الضيق في العيش، والسعادة والشقاء والعزم والذل والرقي والتأخر والقوة والضعف ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يصيبهم في الآخرة من عذاب أو نعيم وفقاً لأحكام هذا القانون ...) [2].

وهذا يعني أننا مطالبون بأن نربي أنفسنا على هذا القانون الإلهي الذي تخضع له الأنفس وبمقدار نجاحنا في ذلك تكون سعادتنا ورفاهيتنا ورقينا...

وهذا يدعونا إلى:

- فحص النفوس والصفات والأحوال، بمعنى محاسبة ذواتنا كمسلمين، وكفقد جوانب الخلل ومكامن النقص. لأفرادنا ومجتمعاتنا ولأوضاعنا كأمم ودول وفقا لمقتضيات سنن الله في التحويل من السيء إلى الحسن. ومن الفقر والجهل والتفرقة إلى الغنى والعلم ومن الفرقة إلى الاجتماع المنظم الموجه للجهود والطاقات من أجمل تنمية الإنسان ومكانه ومجتمعه الذي يعيش فيه.

وهي مسؤولية التربية في منظومتها العليا التي تستقي منها بقية منابر التربية ومؤسساتها المدنية والمجتمعية.

فإذا رأى غير المسلمين هذا القيام التام لقانون الإسلام الإلهي وانضباط المسلمين به وعدم حيدتهم عنه.. التزموا الحد الأدنى من ذلك الاستسلام ضرورة لضمان معايشهم واستظلالهم بظلال الإسلام الوارفة وهو ما كان واقعا معاشا في عصور الإسلام الزاهرة.

- الأخذ بالأسباب وإدراك سنن الاجتماع البشري:

(1) أخرجه البخاري ومسلم بألفاظ متقاربة بالأرقام 2442، 3443 في صحيح البخاري، والأرقام 2266، 2267 في صحيح مسلم.

(2) الدكتور عبد الكريم زيدان: السنة الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص 12، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ/1993م.

والقرآن الكريم كما نبه لذلك ابن القيم مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة[1].

والفرق بين الأحداث الكونية وبين الأحداث الاجتماعية هو أن أسباب الأولى واضحة بينه مضبوطة.. إذا عرفناها أمكننا الحكم بدقة على نتائجها ومن ذلك عرفت قوانين الفيزياء والكيمياء وما شابه ذلك .. (أما أسباب الأحداث الاجتماعية فهي بمختلف أنواعها سياسية واقتصادية وحضارية وعمرانية وغلبة ونصر وهزيمة وخذلان.. إلخ أسباب دقيقة وكثيرة ومتشعبة ومتشابكة. وقد يعسر على الكثيرين الإحاطة بها تفصيلا... ولكن مع هذا العسر يمكن للمتأمل الفاحص الدقيق أن يعرفها ويحيط بها علما، أو بمجملها ويستخلص العبر منها!! وخصوصا إذا كان الفحص عبر مجامع علمية، وهيئات شورية وخبراء لهم اختصاص بعلوم الاجتماع والعمران البشري.

ومن أجل هذا الفرق بين الأحداث الكونية المادية وبين الأحداث البشرية يغفل الناس كثيرا عن سنة الله في الاجتماع البشري وفي تصرفات وسلوك الأفراد والأمم ويظنون أن أمورهم لا تخضع كما تخضع الظواهر الكونية لقانون الأسباب والمسببات)[2].

كل هذا يدعونا إلى التأكيد على أن التربية على قضايا التعايش الإنسان لا بد أن تكون في أساسها وأصلها متنبهة وقاصدة إلى التربية على حقائق السنن الاجتماعية التي لا تحابي أحدا وأن كل من أخذ بها قادته إلى نتائجها بغض النظر عما هو عليه من انتماءات وولاءات.

وإن الأخذ بأسباب السلم والأمان يقود إليهما والأخذ بأسباب العلاج يقود إلى العافية من الأسقام.. وقس على ذلك. وقد نبه الإمام الشاطبي وغيره من الأئمة الكبار إلى أن الأسباب لا تستقل بالمسببات بل لا بد من توفر شروطها وانتفاء الموانع التي تمنع من حصول نتائجها (وأما إذا لم تفعل الأسباب على ما ينبغي ولا استكملت شرائطها ولم تنتف موانعها فلا تقع مسبباتها شاء المكلف أو أبي...) [3]. فواجبنا نحن المسلمين اليوم أن نحسن معرفة أسباب السلامة وأن ندرك قوانين الإصلاح والتنمية، وأن نسبق إليها، أو نلحق بمن سبق إليها وأن تقوم مؤسساتنا بدورها في التربية على كل القضايا الإنسانية العادلة والمنتجة وأن نطفئ نيران الفتن وفتيل الحروب وأن نحارب عوامل الفساد والإفساد بتربية الأجيال على الحق والبناء وحب البقاء والإبقاء على الآخرين وطلب الخير والهداية لهم لتحقيق غاية العمران التي مكننا الله في الأرض من أجلها: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود، آية 61).

- تعظيم المقاصد الكبرى (الكليات الخمس).

وهذا المعلم من أهم ما يمكن أن يركز عليه وتسلط عليه أضواء المناهج التربوية في العالم اليوم إذ إن الشرائع السماوية جاءت محققة لهذه المقاصد.. وجاء الإسلام بتحقيقها في أكمل صورة مستكملا ما لم يكن استكمل في

---

(1) انظر مثلا مدارج السالكين، ج498/3، ومفتاح دار السعادة من كتب ابن القيم رحمه الله.

(2) السنن الإلهية، مرجع سابق، ص 24.

(3) الموافقات ج218/1.

الشرائع السابقة ومنظما لحياة البشرية حسب القانون الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذه المقاصد الكبرى هي:

أ- حفظ الدين.

ب- حفظ العقل.

ج- حفظ النفس.

د- حفظ النسل.

هـ- حفظ المال.

وإنه ليجمتع البشر على إدراك أهمية هذه الكليات الخمس ولزوم صيانتها وحفظها وإنما تختلف مواقفهم وآلياتهم في كيفية المحافظة ومن هو الأحق بها. ولابد أن ننشر[1] هذه المفاهيم في العالم اليوم ويطلع العالم بأسره على ما قرره علماء المسلمين سلفا وخلفا في حفظ هذه الكليات الخمس على المنهج الوسط الذي ارتضاه الله لهذه الأمة.

إذا حسمنا أوضاعنا على المستوى الداخلي وحزمنا أمننا وطرق عيشنا وتعايشنا مع بعضنا وحققنا نجاحا حقيقيا في ذلك.. فإننا لسنا بمعزل عن العالم من حولنا ومجالات الاتفاق والتعاون أوسع من دوائر الشقاق والاختلاف، وعليه فإننا مسؤولون مسؤولية تامة عن تواصلنا مع العالم من حولنا، وذلك يكون أولا يلفت انتباه العالم إلى أسسنا ونظمنا التي تكفل التعايش فيما بيننا، وتحقق ممارساته في أرض الواقع..

## المبحث الثالث: المسلمات المتفق عليها بين الشرق والغرب في التربية على التعايش الإنساني

من غير شك أو جدال فإن هناك مسلمات ومرتكزات لقضايا التعايش هي محل اتفاق لدى أهل الأرض ومنها:

### 1- إنسانية الإنسان وكرامته:

حيث تتفق كل الثقافات والأديولوجيات على مكانة الإنسان الخاصة في هذه الحياة، وحقه في العيش الكريم.

وفي عصرنا الحاضر وصل الإنسان إلى مدارك من العلم والرقي جعلته يعي قيمته وكرامته وحريته ويسعى لضمان كافة حقوقه، مع الاعتراف بحقوق الآخرين، إلا بقايا من بؤر الصراع في العالم، يمكن استثناؤها لأجل تشابك الأوضاع فيها.

وإذا نجح العالم اليوم غربا وشرقا في تفعيل المواثيق التي ترعى كرامة الإنسان ... فلا شك أن دائرة الصراع ستضيق، وأن التعايش والتقارب وتبادل المصالح هو الذي سيظهر على واقع الحياة، على الأقل في الجزء الأكبر من المعمورة.

---

(1) هناك اهتمام عالمي بالتراب الإسلامي بوجه خاص، منذ أن بدأه المستشرقون وما زال إلى اليوم، وهذا يضعنا أمام الدول الحقيقي المنوط بنا، والذي يستوجب تجلية الحقائق، ودفع الشبه التي ألحقت بتراثنا من البعض، والاستفادة من المنهج العلمي النقدي الذي يوجه للعلوم لخدمة قضايانا المعرفية، ومن ثم المعيشية.

وحيث إن إنسان الشرق هو إنسان الغرب والعكس بالعكس في الإنسانية والكرامة وحق العيش، وحقوق الانتماء والمواطنة، فقد اتجهت القوانين إلى حفظ الحقوق وكفالة الحريات وتحقيق سبل التعايش بنسب متفاوتة، وبعض الدول قد قطع شوطا في ذلك.

وإن العالم الصناعي اليوم يستوعب أعدادا كبيرة من البشر من الشرق والغرب لكن الخطر كل الخطر هو حينما تتحول هذه الأعداد البشرية إلى مجرد آلات منتجة.

تختفي وراءها بشرية الإنسان، وتنقرض فصيلته وعائلته التي ينتمي إليها بمجرد خسارته لمشاعره وإنسانيته وعاطفته، وانغماسه الكبير في المادية الجافة التي لا تعرف الرحمة والإحسان، فيتحول الإنسان إلى كومة من اللحم والدم لا تعي ولا تدرك إلا ما يلي غرائزه الحيوانية.

وهذا المعنى مرتبط بالعنصر الثاني بعده، فإذا وعى العالم شرقه وغربه إنسانية الإنسان، وأدرك ضرورة رعاية هذا الحق فسيؤديه ذلك إلى القناعة بحق بعضهم البعض في البقاء والعيش المشترك، وقد حرصت الأديان بمختلف مصادرها على أن تبعث في الإنسان جانب الإحسان والإيمان، من أجل المحافظة على بشريته وخيريته وإنسانيته، ولكننا نجد هذا السمو الإنساني وهذه التربية الفاضلة أكثر وضوحا وجلاء في دين الإسلام..

## 2ـ حق البقاء والعيش المشترك وتقديم النفع البشري:

إن هذا الكوكب واسع الأبعاد وعظيم الخيرات كثير الفرص متعدد الموارد، لم تتوقف الحياة عليه يوما ما ... ولكن أطماع الإنسان ضيقت المساحات الواسعة.

وحروبه أفسدت البحار والغابات والأنهار ومصانعه تستنزف كثيرا من موارده استنزافا جائرا لا عدل فيه.. ومنذ أن وجد الظلم والقتل والإفساد في الأرض ... والبشرية تزداد آلامها ومآسيها. نظرا لتكدس الثروات في نسبة قليلة من المجتمعات البشرية، بينما تصارع الأغلبية العظمى جوانب البؤس والفقر، والمرض لنقص الموارد لديهم، وغياب الضروريات اللازمة لحياتهم.

ولابد من الارتقاء بالفهم البشري إلى حقائق التعايش والتعاون... وأن حق البقاء مشروع لكل أحد على وجه الأرض.. بل حق البقاء الكريم الذي يكفل له معيشته وتعليمه وأمنه وصحته والمطلوب هو تقديم النافع والأصلح للحياة والأحياء، وحين يجد المواطن الشرقي أن حقه في البقاء محفوظ كما حفظ حق المواطن الغربي ويتأكد قاطنوا الغرب من مشاركة قاطني الشرق لهم في حفظ الحقوق ورعاية المصالح... فإن العالم سيكون قد نجح فعلاً في تحقيق إنسانيته وخصوصيته[1].

وإن من أهم المسلمات التي يتفق الشرق والغرب على مكانتها وضرورتها:

## 3ـ الرحمة بالمعنى الشامل والإيجابي:

التي بها يرحم الناس بعضهم بعضا، وتتحقق بها إنسانية الإنسان، وكرامته.

---

(1) انظر العرب والغرب على مشارف القرن الحادي والعشرين، مؤشرات استراتيجية، د. قيس جواد العزاوي، مركز الدراسات العربي، الأوروبي، ص 25 وما بعدها.

ويرحم الناس بها غيرهم من الكائنات حتى تصل رحمتهم إلى صنوف الحيوان والطير، وغيرهم، مما يحقق الأمن البيئي، ونقاء الهواء الذي يتنفسه الإنسان والحيوان والنبات، ويحد من كوارث التلوث العالمي المتزايدة بسبب غياب الرحمة بمعناها الشامل للإنسان والكون والحياة!!

وتترجم هذه الرحمة في صورة جميلة من تربية الشعوب على الاهتمام بالبيئة، وسن القوانين من أجل الحفاظ على مصادر الطاقة، وتوزيع الثروات والحرص على إشباع الجوعى من خلال تعليمهم وتدريبهم وإدماجهم في سوق العمل، ومعالجة المرضى، وتعليم غير القادرين على دفع رسوم التعليم، ومواساة العاجزين إلى غيرها من الرحمات!!

الرحمة هي الصورة العليا المثالية والحضارية للرقي البشري البعيد عن الهمجية والغوغائية والأنانية، والجهل، وهي عنوان إنسانية الإنسان.

وقد لخص القرآن الكريم المهمة الجليلة لرسول البشرية الخاتم في ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾. ويكاد أن يكون الإسلام بمعناه الشامل في مقابل الرحمة بمعناها الكامل!!

إن التعايش السلمي بمفهومه السلمي الحقيقي والعام يشمل كل مظاهر الحياة، بل ويتعداها إلى آفاق السماء ومتاهات الأرض، ولجج البحار!! ولقد مكن الله بني البشر من كثير من العلوم والمعارف، وأتاح لهم الأسباب التي تمكنهم من تحقيق أعلى نتائج الإصلاح والخيرية... وهذه الأسباب ليست حكرا على أمة أو أتباع دين أو مذهب، وإنما هي حق لكل من أخذ بها، وأتقن التوصل بها إلى مسبباتها..

وإلى جانب تلك الأسباب الموصلة إلى الصلاح والخيرية.. هناك أسباب أخرى تكون طريقا إلى فساد الحياة، وهلاك خيراتها وشقاء بني الإنسان فيها!!

والتحدي الأكبر اليوم أمام اتباع الديانات والفلسفات والثقافات هو النجاح في الوصول إلى كلمة سواء من أجل إسعاد البشرية وكبح جماح الويلات المحدقة بالعالم، وهو تحد كبير وخطير يستلزم إعادة الصياغة والبناء لكثير من المناهج والخطط والقوانين، ويضع أصحاب القرار أمام مسؤولياتهم التاريخية التي تحدد مصير شعوبهم وأتباعهم .. فلم يعد العالم بمعزل عن بعضه البعض، بل تداخل تداخلا كبيرا، وأصبح حينه في أقصى الغرب يتأثر سلبا أو إيجابا لما يقع في أقصى الشرق، وذلك مما يحتم على الجميع الإحسان إلى الجميع والرحمة بالجميع!! والأخذ بأسباب الصلاح والإصلاح.

## 4ـ تحريم الدماء، تحريم الحروب وتجريم القتل وتأكيد حق الإنسان في البقاء.

تلتقي الأديان والفلسفات والثقافات على تأكيد حرمة إزهاق النفوس وعلى تجريم القتل، وكذلك الفطرة السوية في الإنسان ترفض هذا السلوك الإجرامي البشع إلا في استثناءات محدودة معروفة.

وعلى البشرية اليوم أن تطبق هذا الأساس المتفق عليه ليكون بوابة كبرى للتعاون بين الشرق والغرب، بدلاً من تصدير الحروب والمجاعات، والمآسي.

والملاحظ أنه يقترب العالم من بعضه كثيرا في المآسي، فتظهر المساعدات والمعونات والأدوية والأغذية... إلخ عند وقوع الكوارث الطبيعية كالزلازل ونحوها ... وهذا مطلب إنساني وضرورة لاستمرار الحياة ولكن لماذا لا يقترب العالم من بعضه أكثر في أوقات الأمن والسلم والرفاه؟! فيحقق العيش المشترك في أحسن صوره؟! لماذا لا يقترب العالم من بعضه أكثر بإيقاف الحروب، وتحويل صناعة السلاح إلى صناعات أخرى أكثر رفقا بالإنسان والكون؟!

ويحق لنا هنا أن نطرح كثيراً من التساؤلات، التي هي في حقيقتها انعكاس الواقع البشرية اليوم:

- كم قتلت الحروب، وشوهت وأعاقت من بني البشر؟
- كم حجم المعارف والعلوم التي دمرت بسبب الحروب؟ فضلا عن هلاك البشر.
- ما حجم الخسائر المادية في عقد من الزمن بسبب الحروب، فكيف بها خلال مسيرة قرون؟!![1][2]

لاشك أن الأرقام ستكون كارثية ومهولة ... ولاشك أنه كان يمكن للإنسان تجنب ذلك المقدار من الخسارة لو أنه غير من تفكيره وطريقته في إدارة الاختلاف والنزاع.

وإن قدرات عالمنا اليوم الاقتصادية عالية جدا وثرواته هائلة، وتسخيرها للعمران والتعايش والسلم أقل كلفة من تسخيرها لفناء البشرية، وهلاكها؛ فلماذا يستحوذ الإنفاق العسكري الهائل عليها؟!! ومن المستهدف بالتدمير؟!! وإلى أين يتجه العالم؟ وأين هو التعايش المنشود؟!!

أين رحمة العالم للعالم؟ وكذلك رحمة القادة والعلماء لغيرهم، وأين رحمة الغني للفقير، والآمن للخائف، والمقيم للمشرد؟

أليس من الأنفع والأبقى للدول وللشعوب أن تصرف القوى الاقتصادية لعمران الأرض وإسعاد البشرية بدلا من تدميرها؟!!

إن أي امبراطورية مهما كبرت مهددة بالزوال أو الانحطاط إذا تجاوزت نفقاتها العسكرية قدراتها الاقتصادية.. وهكذا ينقلب السحر على الساحر.. وتقوض أسس الأمن، ويغيب العلم والعلماء، ويتهدم العمران ويكثر الفساد والإفساد، وذلك يفتح الباب على مصراعيه أمام ألوان جديدة من الصراع والفساد العريض[3].

## المبحث الرابع: التعليم كمنطق للتعايش

يحتل التعليم أهمية قصوى عند الأمم الحية والشعوب الناضجة ويتطلع العالم المتأخر عن ذلك إلى أن يأخذ بنصيبه من العلم أسوة بالعالم المتقدم، وتحرص الدول الرائدة على بناء أفرادها بناء متفردا، يضمن امتلاكها سلطة القيادة والإدارة والعلم والتعليم وتدفع لذلك الأموال الطائلة وترصد الميزانيات الهائلة!!

وقد انشغل العالم الغربي بدراسة الشرق من عدة مواقع من أهمها مدارس التعليم العام والجامعات ومراكز البحث العلمي وأنشأ الدوريات العلمية وسوق الكتب الحرة، ومراكز البحوث والدراسات الملحقة بالحكومات وجماعات المصالح

(1) انظر: شرق وغرب الشرخ الأسطوري، جورج قرم، ص 43.

(2) كانت الحرب العالمية الثانية أكثر الصراعات العسكرية دموية على مر التاريخ، والتي قدر إجمالي عدد ضحاياها بأكثر من 60 مليون قتيل، مثلوا في ذلك الوقت أكثر من 2.5% من إجمالي تعداد السكان العالمي.

انظر ويكيبيديا خسائر الحرب العالمية الثانية: or.m.wikipedia.org

(3) ترتب على الحرب العالمية الثانية تدير الاقتصاد الأوروبي وانهياره وكساده إلى حد كبير وعميق، مما أدى إلى انتشار الفقر والبطالة بشكل واسع، مما خلق تربة خصبة لانتشار الشيوعية في ذلك الظرف، مما استدعى بعد ذلك التدخل الأمريكي لإنعاش الاقتصاد الأوروبي في ما سمي بمشروع مارشال، لمواجهة التمدد السوفيتي آنذاك.

ويكبيديا: مشروع مارشال ar.m.wikipedia.org

ومراكز الضغط والشركات الكبرى، ومنتديات الحوار عبر الأديان ووسائط الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية وغير ذلك[1]. في سعي دؤوب ومكثف لكشف واستكناه عوالم الشرق من أقصاه إلى أقصاه.

ولم يهمل الشرق دراسة الغرب ولا دراساته وأبحاثه وإن كان ما يزال الكثير من تلك الدراسات أو الدراسات المضادة بحاجة إلى إخضاعها لمجهر الفحص الدقيق، والنقد الموضوعي... وربما كان الأولى ببعضها أن يتجاوزها الزمن .. .

فما نزال في شرقنا الإسلامي بحاجة ماسة إلى أعمال مؤسسية ذات رؤية ومنهجية واستقلالية في دراستنا للشرق والغرب من حولنا. ويمتلك عالمنا المسلم ثروة كبيرة من العلماء والمفكرين والباحثين تنتظر استثمارها بأعمال مؤسسية طموحة، فحين تتوفر الإرادة العليا، والعمل المنهجي فلا شك في النتائج المبهرة.

يبقى التعليم هو المنطلق الأساس الذي يؤثر في تصورات الشعوب واتجاهات الأفراد ومواقفهم من الحياة وخصوصا مراحل التعليم الأولى التي يحظى بها أكثر أفراد الشعوب وتعتبر المنطلق الأساس لمفاهيمهم عن الحياة.

وعليه فإن التعليم ينبغي أن يتناول جانبين مهمين في حياة الأفراد لتحقيق التعايش المنشود:

- الجانب الأول: منظومة القيم العليا المتفق عليها بين بني البشر والتي مدارها على الركائز التالية:

أ- الإنسانية أو تنمية الجانب الإنساني.

ب- العدالة.

ج- الرحمة.

د- المسؤولية

هـ- الخير (والعفو والإحسان).

ولاشك أن هناك قيما كثيرة تندرج تحت هذه الركائز أو تضاف إليها. وإذا كانت قد انطلق صيحة التحذير من رأس النظام الأمريكي في حين مضى بقوله: إن الإفلاس الحضاري يأتي من تسيب النظام التربوي أولا، ثم النظم الاجتماعية بعد ذلك، وبذلك أصبحت القيم معرضة للخطر[2] أكثر من أي وقت مضى!! فإن هذا المؤشر له دلالاته الكبرى، ولا بد للشرق والغرب اليوم من الاهتمام العالي بمنظومة القيم الإنسانية العليا التي يتميز بها البشر الأسوياء عن بقية المخلوقات.

والمطلوب هو أن تتجه البرامج العلمية إلى تفعيل دور القيم العليا ببرامج داعمة، ومراكز رصد، ومحاضن تدريب، وتطوير؛ لأنه هو الذي سيتيح للأفراد إدراك مضامين القيم وضرورتها في التعاون والتعايش بين الأمم..

وإن تعزيز ثقافة الإنسانية والأخوة البشرية، ونبذ المفاهيم المضادة كالعنصرية والطائفية وإلغاء الآخر من أهم وسائل التعليم الأبقى أثراً في حياة الفرد مع الحرص على طلب الهداية للأفضل، وتلمس الصراط المستقيم الذي به يكون قصد السبيل.

---

(1) انظر: الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، عرض ونقد، تأليف: د. محمد وقيع الله، الفصلين السادس والسابع.

(2) انظر: قيمنا المعرضة للخطر أزمة أمريكا الأخلاقية، جيمي كارتر، ص 224، نقله للعربية محمد التوبة.

ويجب أن يكون هناك تدريب واقعي عملي يخضع للتقويم والرصد في المجامع البشرية الكبرى والصغرى كالجامعات والمدارس والنوادي الكبرى والجمعيات وغيرها، يكون أساسه الحوار الصريح البناء، والمشاركة الفاعلة في التنمية.

وإن استثمار العوامل الثقافية الجيدة لدى الشعوب المتعلمة والمتقدمة من أجل صالح البشرية وإشاعة مفاهيم التسامح في مناهج التعليم لهي أحد أكبر مقومات النجاح للبشرية والوقوف جنبا إلى جنب مع بقايا مكارم الأخلاق التي يمتلئ بها عالم المسلمين وغيرهم في مواجهة الكوارث والمجاعات والحروب. والمهم في ذلك تنقية المناهج التعليمية والمواد الإعلامية أيضاً من الصور النمطية السيئة أو المسيئة حيث إن الصورة النمطية المسيئة تحتل مساحة هامة من عقلية المتلقي وإن على التعليم والإعلام تصحيح الكثير من الصور النمطية الجائرة.

ويمكن أن تكون شبكات التواصل الاجتماعي أو ما يعرف بالإعلام الجديد أحد أكبر منافذ التقريب بين الشرق والغرب كدول وثقافات وبين الشعوب في أدائها بما فيها من سهولة للتواصل والتثقيف بين أفراد الشرق والغرب خصوصا إذا أدركنا أنها أصبحت الوسائل الموجهة لكثير من شباب العالم إن لم يكن الأكثر، بل وأصبحت تلك الشبكات موجها قويا للرأي ومقياسا للاستطلاع عند بعض الدول.

وأما الجانب الثاني من التعليم فهو نشر التعليم المتقدم وأساليبه الحديثة وتحقق التعاون الدولي في مجالات البحث العلمي والابتكار والانتشار والتداخل بفروع الجامعات (الانتشار التبادلي) لتقليص الفجوة المعرفية بين الشرق والغرب، وردم الهوة الكبيرة الحاصلة بسبب البون الشاسع في ميادين العلم والمعرفة. وكسر ميادين الاحتكار العلمي والتقني والبحثي الذي يعتبر من أبشع أنواع الاحتكار.

والمقصود الانتشار التبادلي بحيث تصل فروع التعليم المتقدم في الغرب في مجالات الطب والطاقة والتقنية إلى كل الشرق وتصل فروع التعليم في الشرق إلى كل الغرب، وتهيئة الأجواء وتذليل السبل للزمالات في جميع التخصصات ومنح الإجازات والجوائز لمن يحقق السبق من تلك الجامعات. وإشاعة روح البحث والعلم، وتوطين المعرفة بدلا من تشجيع هجرة العقول وتعزيز الانتماء وثقافة التواصل والتعايش في صور التطبيق والممارسات العملية اليومية، ونشر وإشاعة المبادرات التي تحل مشاكل الإنسانية وتخفف معاناة البشرية. وأما ما نشهده الآن من تمدد مماثل لمعاقل التعليم في الشرق فهو إنما يكرس الهيمنة وصراع المصالح واستلاب الهوية ويضعف القيم ويؤجج صراع الإيديولوجيا واستقطاب العقول وتهجيرها وهو ما يتعارض مع التعايش ومقوماته وآلياته!!

إن دعم التعليم بمراحله المختلفة وعلى جميع المستويات كفيل بتحقيق نقلة نوعية للمجتمعات البشرية، ورفع مستوى التعاون والتقارب والتضامن بين الشرق والغرب. وإن العلم هو سيد الموقف، وهو الكفيل بسد الفجوات الحضارية الكبيرة.

وإن استثمار ثورة الاتصالات الحاضرة في مجالات التعليم كفيل بتحقيق نتائج مرضية إذا توفرت الإرادة العالمية والمحلية الواعية والرؤية الجيدة المدروسة بإخلاص وكانت هناك إدارة صالحة تحسن التعامل مع البيئات والمتغيرات والفروقات المجتمعية والدولية.

وإن من أهم المهمات التي تنتظر مسيرة التعليم سواء في الشرق أو الغرب هي:

**معالجة أخطاء التعليم (أو المناهج الدراسية):**

حيث لا تزال كثير من المناهج المقررة دراسيا (لدراسة الآخر) تدرس من جهة نظر (أحادية) لم يسمح فيها للطرف الآخر بأن يصحح المفاهيم التي تدرس عنه خطأ.

وهذا واقع ملموس في كثير من جامعات الغرب، التي أصدرت أحكاما مسبقة عن الشرق وأخذت زمنا في تدريسها للأجيال دون إتاحة الفرصة للنقد الموضوعي للتدخل والتصحيح؟!

وهذا يحد كثيراً من التعاون ويضع العقبات في دروب التعايش والتعاون العالمي.

وإن الإصرار على فهم الآخرين من زاوية ضيقة أحادية تخضع لتفسير شخصيات منفردة لهو خطأ كبير يعوق ويعرقل مسيرة التعاون بين الدول والشعوب.

ولا بد من إصلاح الأخطاء أولاً بأول[1]. وتنقية المناهج الدراسة في الغرب من الأحكام المسبقة، والصور النمطية عن الشرق المسلم خصوصا، وهي مراجعة عسيرة وشاقة ولكنها ضرورية.

إن من أكبر الأخطاء في المناهج التعليمية: التركيز على ثقافة الصدام. وعلى الأعمال الفردية غير المؤسسية!! فقد تغير الزمان وتبدلت الظروف وتشابكت المصالح وتسنى للبشرية التواصل والاحتكاك عن قرب ومن ثم استطاعوا أن يفهموا بعضهم بصورة أوضح، ومسؤولية المثقفين والمفكرين والقادة للرأي شرقاً وغرباً أن يطبقوا حياة ثقافة السلم في تفكيرهم وخطابهم وأن يسعوا إلى الرخاء والتعامل الإنساني المنتج بالتركيز على الهدف المركزي الذي يحركها[2] أعني الشعوب.

وكما أن من أخطاء التعليم إبقاء الصور النمطية فكذلك إعطاء القوالب الجاهزة والأحكام المسبقة أو إخلاءها بصورة سلبية مما يجيب على التساؤلات المطروحة، والمتعلقة التي تحيط حياة الأفراد والمجتمعات اليوم ومن أمثلتها: العنف، والإرهاب، والكراهية، وغيرها مما هو معروف لدى المتلقي العادي بأن هناك إشارات وإيحاءات صريحة أو ضمنية تحصره في ثقافة أو فكر أو دين!! وكل هذا يعوضه تعاون الأمم في تصحيح الخطط والبرامج ولا بد من التصحيح القانوني أيضا لكثير من القوانين التي تعكر صفو التعايش، لتكون سنداً قوياً للتعايش المعتدل.

## خلاصة البحث

نظرا لسعة موضوع التعايش وامتداد أطرافه وتجاذباته فقد كان هذا البحث كمن يريد أن يبحر بقارب صغير وسط أمواج المحيط العاتية!! وقد حاولت جاهدا أن ألمّ أطرافه، وأن أقصد إلى تجلية جوانب مهمة في موضوع التعايش بقدر ما تسمح به مساحة البحث وإن كان لا يزال وسيظل محتاجا إلى مزيد بحث وتأمل، وقد تأكد لي من خلال البحث حاجتنا إلى ضبط المفاهيم والمصطلحات ابتداء وهي جزء من تنقية الفكر والفهم وتنظيم المعرفة، وتيسير التعامل معها، ومن ذلك:

1- بيان المقصود بالتعايش الإنساني من بعض جوانبه، وقد حاولت في البحث الموجز أن أعالج جانباً من جوانب التعامل الإنساني في ظل المعطيات المعاصرة وهو موضوع مهم وواسع ويحتاج إلى ندوات ومؤتمرات ومجامع علمية

(1) انظر : أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة، هشام جعيط، ص 63.

(2) انظر: الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش. ومحاور الالتقاء والافتراق بين الإسلام والمسيحية، غسان سليم.

ومناهج دراسية وإنتاج إعلامي مساند بكل وسائل التأثير المعاصرة، ولا بد من اتجاه عالمي حقيقي وفاعل لتحقيق السلم والتعايش بمفهوماته ومضامينه الصحيحة.

2- إن التعايش الإنساني بين بني البشر في عالمنا المعاصر الذي اختلطت فيه سائر الأعراق والأجناس والأديان والمذاهب ضرورة من وضرورات الحياة، ومطلب من مطالب الاستقرار والعمران البشري، فالتعايش هو الأخذ بأسباب العيش وتبادل المنافع واتساع دائرة التعاون بين بني البشر بغض النظر عن معتقداتهم ومذاهبهم في إطار منظم يكفل للجميع الحياة الكريمة والأمن والاستقرار، لأن أهم ما في التعايش هو البعد عن بواعث الفرقة والصراع والعنف، وتهيئة الجو الصحي للحوار والمعرفة وبناء الذات المفكرة المنتجة.

3- يظهر مما سبق تعدد مستويات التعايش وتنوعها وأن أكملها ما بني على المبادئ والقوانين العادلة لا على المصالح الوقتية التي ترحب بالناس (كل الناس) في زمن المصالح وتتنكر لهم عند أفول نجمها وغياب مصالحها!!

4- أن التعايش الإنساني الصحيح يقوم على أركان وله منطلقات وآليات وهي في جملتها ذات أصول إسلامية، طبقها المسلمون في تاريخهم المجيد واستوعبوا بها أهل الدنيا على اختلاف مذاهبهم وطرائقهم ولدى الدول الإسلامية في زمننا الحاضر الكثير من أسباب النجاح إذا أحسنت إدارتها فيما بينهما. نظرا لما تمتلكه من الموروث الإسلامي الكبير في تأطير قضايا التعايش، وكذلك الممارسات التاريخية الإيجابية الواقعية التي ما تزال ممتدة إلى اليوم في بعض بلاد المسلمين.

5- شدة الحاجة إلى التربية على المعاني السامية والمقاصد الكبرى المنظمة للسلوك البشري والمحققه له، مع التأكيد على أن التعاون الدولي مطلب مهم لحفظ القيم الإنسانية قيم العدل، والسلم، والأمن والحرية والتي عليها مدار سعادة البشرية.

6- ضرورة نزع فتيل العنصريات والطائفيات والدعوات الشعوبية وغيرها، وسن القوانين لتجريم ذلك.

7- إطلاق عمليات موسعة مدروسة لنشر وتأصيل ثقافة الحوار بين المختلفين وتشجيع ذلك على المستوى الرسمي والشعبي والاستفادة من الدراسات النفسية والمختصة في التربية على أعلى المستويات، وإيجاد نواد للتدريب على الحوار وإفراد مناهج دراسية لهذا الشأن تعنى بتربية النشئ من مراحل التعليم الأولى على الحوار، وأهدافه وآلياته وتطبيقاته ونتائجه، وليس هذا خاصا ببلد دون آخر، بل هو مطلب عالمي، تظهر الحاجة له في كل بلدان العالم.

8- تشجيع العلماء المسلمين المتخصصين في الشريعة والقانون والتربية، وعلم النفس والاجتماع على تكثيف جهودهم وتمكين اجتهادهم الجماعي، وقيام المراكز المتخصصة في دعم العلماء وتقديم الحوافز لهم وتشجيعهم على الاجتماع والبحث للمستجدات في عالم اليوم من أجل رسم خطط التعايش ودرء الفتن عن بلاد المسلمين. كل في مجاله، وكل بحسب استطاعته، في إطار المجامع العلمية والحلقات الدراسية والحوارية!! لتظهر بعد ذلك النتائج المتوخاة ويستمر تكامل العطاء!

9- لا يمكن أن يكون هناك سيادة للقيم العليا وتقديم للمصالح الكبرى، ما لم تكفل التشريعات والقوانين والأنظمة حرية وكرامة القاطنين على أراضيها سواءً من مواطنيها أو من الوافدين إليها.

10- وإن الحياة الكريمة والهانئة هي صمام الأمان لأمن المجتمعات وبغيرها لا ينفع تعليم ولا تقنين.

11- الاستفادة من المساحات المشتركة للقيم والمصالح بين الشرق والغرب، ودعوة عقلاء العالم وحكمائه للاجتماع على كلمة سواء من أجل الإنسانية وإسعادها ورسم المستقبل المشرق للأجيال القادمة[1]. ونتذكر في هذا المقام حلف الفضول الذي شهده رسول الله في الجاهلية وأخبر أنه لو دعي إليه في الإسلام لأجاب[2]!!! كما هو معروف في السيرة النبوية الشريفة.

12- إيجاد مراكز متخصصة تعنى بمنطلقات التعاون والتفاهم بين الشرق والغرب وبين الشرق نفسه من أجل تطبيق الآليات على أرض الواقع في إطار قانوني ودولي يحمي الأفراد والشعوب[3] وخصوصا الأقليات لتحقيق السلم والتعايش وتنقية مسارات السلام مما يعترضها، وإيقاف الشعوب والأجيال على حقيقة الواقع، ليكون الجميع يداً واحدة في مواجهة التحديات على علم وبصيرة.

## الخاتمة

وفي خاتمة المطاف أرجو أن أكون قد أبرزت شيئا من جوانب هذا الموضوع، الذي يعتبر من الموضوعات المحلية والعالمية في آن واحد وأصبح محل اهتمام الخاص والعام سواء بالمقال أو بالممارسة والتطبيق وحيث إن الموضوع تتجاذبه عند المسلم جوانب دينية تعبدية، فقد حفلت كتب الفقه الإسلامي منذ القدم بما يجلي اللبس المتوهم من قبل البعض، ويبقى بعث هذا الفقه من بطون مدونات الشريعة والتاريخ الإسلامي، وعرضه بصورة حضارية تتناسب عظمة الإسلام وعالميته ورحمته وكماله.

يبقى ذلك مسؤولية أهل العلم المتخصصين والمتبحرين في علوم الشريعة وعلوم العصر؛ فإن المتلقي اليوم ليس عاميا بسيطا يكتفي من الجواب بنعم أو لا، وإنما أصبح المتلقي ذا ملكة وعلم وقدرة على المناقشة والحوار والجدل في كثير من الأحيان... لكن كثير من أولئك هدفهم التقصي المعرفي والوصول إلى حالة الجواب الكافي الشافي لما يعتلج في النفوس من الإشكالات المبثوثة في جوانب الحياة اليومية.

ولاشك أنه يوجد في عالمنا الإسلامي الكثير من الجامعات والمراكز الثقافية والمنابر الحوارية، ومعاهد التكوين الفكري والتربوي... إلا أن التواصل والتكامل أصبح اليوم ضرورة من ضرورات المرحلة لمواجهة التحديات الكبرى التي تعصف بالعالم وتستهدف مستقبل البشرية وأمنها واستقرارها وعليه فإن من المتحتم على مراكزنا وجامعاتنا ومعاهدنا وجمعياتنا على امتداد رقعة العالم المسلم اليوم أن تتكامل جهودها وتعزز من خبراتها، وأن تستهدف المصالح العليا الضامنة لاستقرار شعوبها، والسلم مع جيرانها، وأن تنخرط في حوارات متتابعة، ومركزة لمعالجة الفرقة والاختلاف الداخلي، وفتح آفاق التعايش، وتوسيع دائرة الاتفاق وتحجيم الخلاف المذهبي والطائفي، وتقديم المصالح العليا والكبرى على ما دونها من

(1) لعل من المناسب هنا ذكر ما تقوم به ال"إيسيسكو" المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، والتي تنص أهدافها على تدعيم التفاهم بين الشعوب في الدول الأعضاء وخارجها والمساهمة في إقرار السلم والأمن في العالم بشتى الوسائل ولاسيما عن طريق التربية والعلوم والثقافة والاتصال وكذلك ما يقوم به مركز الملك عبد الله لحوار أتباع الأديان والثقافات والذي مقره في النمسا وترعاه عدة دول من بينها المملكة العربية السعودية فهو أحد النماذج التي أفرزها الواقع العالمي، وأحد المراكز التي تسعى إلى أن تحقق دوراً فاعلاً على الصعيد العالمي اليوم.

(2) البدر المنير 325/7، وصححه ابن الملقن.

(3) تدل الإحصائيات السكانية على اختلاف بين البلدان في تركيباتها السكانية ففي حين تعاني بعض الدول من كثرة المسنين كما هو الحالة في أوروبا واليابان تشهد دولاً أخرى طفرة غير مسبوقة حيث يشكل غالبيتها صغار السن أو الشباب.

أجل الوصول إلى حياة آمنة مطمئنة وولوج إلى عصر التقدم والتقنية بما يلاءمه من القدرات والإمكانات التي تضمن لنا موقعاً لائقاً على خريطة العالم اليوم.

والله من وراء القصد.

## مراجع البحث

**أولا: القرآن الكريم.**

**ثانيا: السنة والسيرة الشريفة**

**ثالثا: معاجم اللغة العربية**

**رابعا: الكتب والدوريات**


- التعايش بين الثقافات على كوكبنا الأرض، مغامرة على الكرة الزرقاء، ترجمة: فؤاد اسكندر، مراجعة وتقديم محمد سليمان شعلان، دار المعرفة، القاهرة.
- وماذا لو أخفقت عملية السلام في الشرق الأوسط؟ مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، موضوع الدورة الثانية لسنة 1996م.
- تاريخ الأيديولوجيات المعرفة والسلطة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين، الجزء الثالث، ترجمة: الدكتور أنطون حمصي.
- الحوار من أجل التعايش، د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، دار الشروق، القاهرة.
- مفهوم التعايش في الإسلام بقلم الدكتور عباس الجراري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو 1417هـ/1996م.
- قواعد التعايش بين أهل الأديان بقلم محمد خير العيود، رمادي للنشر السعودية.
- الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، إعداد يحي بن محمد زمزمي، رمادي للنشر، دار التربية والتراث، 1414هـ/1994م.
- جورج قرم، شرق وغرب، الشرخ الأسطوري، بيروت، دار الساقي، 2003م.
- العرب والغرب على مشارف القرن الحادي والعشرين مؤشرات استراتيجية، د. قيس جواد العزاوي، مركز الدراسات العربي – الأوروبي.
- الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة عرض ونقد، تأليف د. محمد وقيع الله.
- جيمي كارتر، قيمنا المعرضة للخطر أزمة أمريكا الأخلاقية، ص 224، نقله للعربية محمد التوبة، الرياض مكتبة العبيكان، 2007م، ص 26، ط1، 2006م.
- الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش.
- محاور الالتقاء والافتراق بين الإسلام والمسيحية، غسان سليم.

- أوروبا والإسلام صدام الثقافة والحداثة، هشام جعيط، ص 63، دار الطليعة، بيروت، ط2، 2001م.
- المعتقدات الدينية لدى الغرب، د. عبد الراضي عبد المحسن.
- إبراهيم شلبي: التنظيم الدولي – النظرية العامة والأمم المتحدة، الدار الجامعية، 1987م.
- ألفت آغا، وآخرون: الأمم المتحدة في خمسين عاما، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- الأمم المتحدة والفصل العنصري 1948- 1994م، سلسلة الكتب الزرقاء، المجلد الأول، إدارة شؤون الإعلام، نيويورك 1995م.
- التعايش مفهومه وضوابطه إعداد عبد الله الوهيبي، ورقة عمل لمرحلة الماجستير، قسم الثقافة الإعلامية في جامعة الإمام، 1432هـ.

**الدوريات:**

- الأمم المتحدة والنظام الدولي "الساسة الدولية" العدد 84 أبريل 1986م.
- مجلة دراسات أندلسية، العدد الرابع عشر، جوان 1416هـ/1995م.
- مجلة العروة الوثقى، هل من تعايش بين الإسلام وفرنسا، بقلم فايجو راوان.
- مجلة الموقف، التعايش والصدام بين الحضارات من منظور إسلامي على مشارف القرن الحادي والعشرين العدد 133 سبتمبر 1419هـ- 1998م.

**خامسا: الأبحاث المنشورة على الانترنت:**

- المنهج الإسلامي في التعايش السلمي، بحث مقدم شهادة البكالوريوس (الشرف) إعداد محمد نصر بن اقليمة، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ على الرابط: dspace.iiuc.ac.bd.
- التعايش السلمي بين الشعوب والأديان، د. رشيد كهوس على الرابط: dspace. Asmarya.edu.ly.
- فقه التعايش بين الطوائف دراسة تأصيلية، د. محمد جاسم عيد على الرابط:
www.iasj.net/iasj?Func=Fulltext&ald=22813